مصطفى ضو (ابن البادية)

الدم الأسود

رواية

الدم الاسود

البداية

ذاكرة الايام لن تغفل او تنسى ما حدث فيها إذا كانت الكلمات والعبارات دالة على ذلك فلا غرابة ان يكون الفعل هو الجسر الحقيقي لتجسيد ذلك كله

الاجيال المتعاقبة التي دأبت على روح الانتقام الاسود والذي أصبح مسارا مألوفا لهم لا يمكن الفكاك منه او تغييره الا بإيجاد جيل اخر يرضى بالتعايش والتكيف والمسالمة مع غيره والتنازل من برج بناؤه مغشوش شيده بعضهم واعطى له اسس واضحة المعالم لروح هذا الفعل السيء الفاضح لكل معاني السلبية التي عششت في مخايل هذه الاجيال المتلاحقة والتي حملت روح الفداء والتعصب وعدم قبول الاخر

هكذا شكل عنصرا فاقد للمعاني الانسانية ومبادئها ينفي ويضطهد غيره لأنه ليس من عنصره السامي فعاش في وهم الكبرياء والتعالي وسحقه فهو لا يستحق الحياة!؟.

ان هذا الجرم ليس وليد الساعة بل هو مسار عبر التاريخ لهذا العنصر البشري الذي يعيش الا مع الحروب بداعي سامية عنصره وتفوقه على كل الأجناس البشرية الأخرى انه تفكير قاصر ومنحط إنما يدل على مركبات نقص وجينات مخبولة على القتل والذبح والتعذيب والتنكيل والقيام بما يروع البشر

وقف بجانب اسوارها يستذكر ماضيا ليس بالبعيد مرت عليه ثلاثة عقود عندما كان شابا يافعا مفتول العضلات وقوي البنية الجسدية وهو يحرس ثغرا من الثغور في وجه عدوان متكالب كان الحصار والدمار والتطهير العرقي على أشده امام انظار رعاة الحرية وحقوق الانسان...؟! اخرج من جيب سترته ميدالية شاهدة على تلك الحقبة التعيسة وما صاحبها من ضيق وقساوة تطارد كل متحرك في تلك الديار، نظر مليا اليها ثم صوب نظره خلف الاسوار والصفوف البيضاء المترامية بعيدا مشكلة لوحة فنية فريدة فشده الحنين الى رفاق دربه الذين يسكنون هناك الضارب اهلها في اعماق التاريخ وتشبثهم بها.

تناول قطعة قماش ومسح بها دموعا سبقته وانهمرت على تجاعيد وجهه كأنها سيول قبل ان يأخذ نفسا، انها الذكريات الحزينة والمؤلمة التي عاشها في تلك الفترة المشؤومة التي ظلم فيها وعذب حتى أصبح على مشارف الموت، وضع باقة الازهار ذات الالوان الزاهية الغالب عليها الاحمر والابيض على صخرة معدة لذلك ثم دعا لهم وانصرف.

كنت على مقربة من المكان اراقب هذا المشهد العاطفي المحرك للوجدان واثارة الشعور والباعث للعقول الواعية والقلوب الرحيمة وزاد من فضولي تكملة هذا المشهد أكثر عندما كان يقلب تلك الميدالية ويقربها من ناظريه حتى ظننت انه سيلتهمها.

اثناء مغادرته استدار خلفه واشار بكلتا يديه مودعا وهو يتمتم بكلمات كأنه يخاطب اشخاصا امامه والأسى باديا على مُجَيَّ وجهه ثم اطرق بخطى متثاقلة نحو مقهى قريب اعتاد ارتياده

جلس وامامه طاولته المنزوية في ركن ينتظر من يعيد له ذكريات الزمن القريب والبعيد كما جرت العادة بينهم دخل أحدهم تكيا على عصا محدوب الظهر يلبس نظارات يبدو انها تساعده على النظر في تلك اللحظة دلف رجل اخر ذو شنب ازرع يرتدي نظارات سوداء قصير القامة ونحيل الجسم أصغرهم سنا تبادلوا التحية فهمت من أحاديثهم والحوار الذي يدور بينهم انهم كانوا في نفس قطاع عملهم قبل تقاعدهم اثار صاحبي الاول انتباهي فكيف بذلك الحزين والغصة في ثناياه وملامحه الدالة على ذلك يتغير بهذه السرعة!، علت محياه ابتسامه وتتحول احيانا الى قهقهة خفيفة اما صاحباه فكانا ذوي وقار شديد ويجاريانه لأنهم تعاشروا معا ردحا من الزمن وكل منهم يعرف طبع الاخر.

كانت جلستهم ممتعة كسائر لقاءاتهم دوما قبل الانصراف اتفقوا على القيام بجولة تذكارية للمدينة وخاصة بعض اثارها الشاهدة والمواقع التي لا تمحى من الذاكرة الجماعية في تلك الحقبة بقصصهم الفردية المرعبة وما عاشوه او رويت لهم.

كان يوما ربيعيا مشرقا عندما استأجروا مركبة لرحلة الذكريات انطلقت جولتهم الى المدينة الجديدة الحديثة البناء والمزدحمة بالناس والابراج السكانية العالية فلم تستهويهم بقدر شوقهم

الى الشطر القديم من المدينة التي اثارها ما زالت تحاكي ذكرياتهم على الرغم من انها اصبحت شبه اطلال لبعض البيوت والمقابر وبعض المعالم الشاهدة على حياتهم تلك بكل تفاصيلها (حلوها ومرها) من جوع وعطش ومأسي كان المدخل عبارة عن قوس متهالك وحجارة على جانبيه تبكي في صمت دخلوا الثلاثة فقابلهم الشارع الرئيسي الفاصل بين شطري المدينة فبدأت معالم مدينتهم القديمة ترجو قليلا وبدأ شريط الذكريات يحكي صفحاتهم المارة في وجدانهم.

قال احدهم: اه... ها هي الشجرة التي كنت اسقيها اصبحت معمرة تحدت كل العوامل لتبقى شامخة وشاهدة وتشبثت بالأرض الطيبة التي سقيت بمائها، ثم صعدوا في جسر يقطع واديا يقسم المدينة الى نصفين ولكنه الان شبه مهدم وطاله الاهمال فقطع الوصال بين الضفتين، الطرق ضيقة ومهترئة كثيرة الانحناءات والحفر، واصلوا المسير الى عمق المدينة واثارها طبعا دون ان ينسوا توثيق الزيارة لحاجة لديهم صعد اصغرهم سنا احد الابراج شبه المتهالك وكرر عبارته السابقة التي كان ينادي بها زملائه فاسترخوا بخيالهم ووجدانهم رجاء واملا وتفاؤلا انهوا رحلتهم لاحد المعالم والاثار الشاهدة على زمن مظلم وعات لتاريخ مضى.

الساعة تشير الى السادسة مساء عندما عادوا ادراجهم الى بيوتهم دخل صاحبي الى مسكنه مرهق ومنهك وخائر القوى لقد نال منه التعب الجسدي نظير خطوات المشي في تلك الطرقات المهترئة فما بالك بالإعياء النفسي نتيجة ذاكرته التي عادت في هذه الرحلة استقبلته زوجته التي عاشت بعض تلك الاحداث وهي واجمة لم تتكلم بعدها طلب كوب من الماء وتناول دواءه ثم ذهب الى غرفه النوم وراح يغط في نوم عميق.

جلس في حديقة منزله ذات الاشجار الكثيفة والمنتظمة والازهار والورود الزاهية المختلفة الالوان تمد المكان بالجو المنعش والرائحة الأخاذة نقيا نقاوة قلبه الطيب وروحه المرحة التي غزتها الذكريات الأليمة ارتشف بعض الرشافات من قهوة وضعت امامه على طاولة خشبية نحتها بنفسه منذ سنوات خلت والتي اصبحت جزءا لا ينسني من ذاكرته المتشعبة في عالمه الخاص تناول البوم صوره الذي وثق فيه بعضا من مسار حياته رغم الظروف القاسية ذات المطبات

العاتية التي غارت على جرحه الدامي كلما شاهدها، انكات له هذا الجرح الاليم الغائص في وجدان الذاكرة يبدا يقلب صفحاته ويتوقف بين الفينة والاخرى تارة يعض على شفتيه وبالكاد يستطيع القيام بهذه العملية نظرا لشيخوخة تسري في جسمه النحيل وتارة اخرى يتنفس بعمق او يؤمي براسه او يخفض عينيه او ينال منه الاستغراب بفتح فمه او الإشارة بيده كانه دليل يرشد سائله وفي لحظات حاسمه اطبق على دفتي الالبوم وامسكه بقوه وضمه الى صدره واحتضنه بقوه كانه وجد كنزا ثمينا اعياه البحث عنه كان متعلقا به بشده فلا يكاد يفارقه اصبح ملازما له واتخذه كأنيس في وحشته التي عاشها رفقه زملاء دربه وضع احدى الصور في لوحه بارزة للجميع في ارقة طريقه بيته لتبقى فيه للأجيال هكذا هو يفكر وتبين مدى تحدي الرجال الظروف القاسية جدا لحصار وتنكيل مؤرس على الاباء والاجداد فاتخذها مرجعا للأمل الذي يعيشه الان

ذات مساء وهم في جلستهم كعادتهم فتحوا بابا مخبتهم والحصار الذي أطبق على المدينة من كل المنافذ واستمر شهورا تضوروا جوعا وظمأوا عطشا وانتشرت الامراض والأوبئة فتكت بالبشر ناهيك عن الماشية وحرقت اراضيهم الزراعية واتلفت المحاصيل وعانوا بين قتيل وتنكيل بالجثث واغتصاب النساء وتيتيم الابناء أصبحوا يعيشوا في وطنهم جحيما حقيقيا كانهم غرباء وذاقت بهم الارض بما رحبت وسدت في وجوههم كل منافذ حياة البشر من تهجير وقتل وانتهاك للاعراض واستعباد هي مرارة الايام التي خلت فحفرت ولن تمحى ابدا

حصار خانق وويلات مصاحبة فتجشموا الصعاب لتخطي معاناتهم او التقليل من اثارها جمعوا امرهم بعد ان بلوروه وقلبوه من جميع الجوانب بدأوا بتنفيذ مخططهم المهمة صعبة ولكنها ليست مستحيلة هكذا قال احدهم وهم يرسمون مخططه تنفيذ وقال اخر: قد يطول الامر ويضيع املنا ونجني السراب فالعدو يتوسط تحركاتنا ويزرع عيونه بيننا تكلم اخر بلغة التحدي والإصرار: انه الشرف والحرية التي نبحث عنها فلنمضي للأمام والوقت ليس في صالحنا يمر بسرعه واتحادنا هو سر قوتنا(فعل قبل قول)... المهمة فيها مخاطر تنتظرهم... كانوا حينها في ريعان الشباب قوة التحمل وصحة الابدان وعزيمتهم التي رسخت في عقولهم وارادتهم

الفولاذية اقسموا قسما بينهم على رفع التحدي وكسر شوكة العدو الغاشم تشكلت افواج العمل للتناوب في التنفيذ على مدار الساعة ليلا ونهارا، جهزوا المسائل والادوات الضرورية لذلك كي تؤدى المهمة المنوطة بها درسوا الموضوع من جميع جوانبه فاختاروا المكان المناسب من بيوت مدينتهم القديمة التي لم يطلها التدمير بعدا ليعيشوا احلاما لفك حصار اتعب الجميع وانقص عليهم حياتهم الطبيعية كبني البشر وليس كالمشردين او اللاجئين في اوطانهم اختاروا كلمة سر اتفقوا عليها جميعا وهي "نفق الامل" بدأت العملية في خطواتها الاولى اين نضع المخلفات قال احدهم ردا عليه: الامر سهل ويسير نرميه في قنوات الصرف الصحي قال اخر: لا لا ربما تحدث مشكله الانسداد ويكتشف امرنا قال رابعهم: نصب خلفه الماء ونفكر بطريقة اخرى تجاوب معه الجميع مضى الشهر الاول لا شيء يحول دون سيرورة العمل فحدث طارئ وصعوبة في اتمام العمل والانجاز والتوقف عن الرمي داخل انابيب الصرف الصحي لقد حدثت مشكلة كيفية التخلص من الكومة التي بدأت تكثر وتحقيق العمل فاختاروا جنح الظلام رغم المخاطر المتربصة بهم مجرى النهر الذي لا يبعد كثيرا اسرعوا جميعا وتعاونوا قبل طلوع الفجر حتى لا تظهر تحركاتهم وما يقومون به للعدو وعيون العدو في كل مكان يطلعونه على اخبارهم اول بأول ومنهم من بني جلدتهم باعوا ضميرهم بدراهم معدود' لا تسمن ولا تغني فاصبحوا عبيدا يتامرون بأمره اذله فقدوا مرؤتهم لمنصب او جاه كاذب

مرت دورية او ما يسمى زوارا حفظ النظام والامن بجانبهم انتابهم الهلع والخوف رغم انه تواجدوا في أماكن أعدت خصيصا للجلسات العامة لا لشيء انما هو قريب لما ينجزونه.

ترجل افراد الدورية وطلب اوراقهم الثبوتية لإثبات هوياتهم زادت دقات قلوبهم وظهر على بعضهم تغيير مفاجئ في ملامحه واتسعت حدقتا عينيه وهمس للذي يجلس بجانبه البعيدين بعض الشيء عن افراد الدورية: يا صديقي لقد اكتشف امرنا وساعة اعدامنا حانت رفع سبابته وهو يخفيها بين فخذيه حتى لا يشاهدوه

مر المشهد المسرحي المخيف وانتهى بسلام وعند اختفائهم تنفسوا الصعداء ونظر بعضهم الى بعض كأنهم خرجوا من كابوس مرعب ومزعج تلبدت السماء بالغيوم فانهمرت المطر بغزارة تفرق الجميع كلا ذهب لحاله بعضهم راحا لما اتى من اجله وقبل الولوج تفقدوا الشارع حتى اصبح خاليا قاموا بخطوات متسارعة رغم كثرة المياه والوحل أشار لهم احدهم كان ينتظرهم بالموقف تبادلوا التحية ثم اردفوا بعبارتهم المعتادة كلمة السر انهمكوا في الاشغال بعد انصراف من كان قبلهم زاولوا تتبع المخطط الموضوع سلفا والمسار المعد للتنفيذ بدأت الاصوات المختلفة تسمع بينهم فاختلط صوت المطرقة والرفش والطرق مع انفاسهم اما الحديث بينهم فهو نادرا لانهم يسابقون الزمن لتتمة اشغالهم هكذا دأبوا عليه مدة تنفيذ مخططهم في سرية تامة

اشتد الحصار وتكالبت قوى الشر التي عاثت في الارض فسادا وانتهاكا للحرمات لا رقيب او حسيبا تعدى كل مواثيق وقوانين الشرعية في مواطن هذه الارض التي يتم اجلائهم منها دون مراعاة للأدمية او مبادئ وحقوق الانسان وتكال بمكاييل مختلفة ظالمه ثقافه القوي يضطهد الضعيف هي السياسة العرجاء والملتوية الفاقدة لمبادئ الإنسانية وحقوقها.

دخلت قوات خاصه للمعتدين أعدمت دون شفقه او رحمه ثم جمعت جثث للأطفال والنساء والرجال بطريقه عدوانية وغير ادميه حفروا خندقا ثم رميت بطريقه بشعة وردمت فيه! ...

طبعا ليست هذه الاولى ولن تكون الأخيرة فصفحات الاجرام عديده ومستمرة في مناطق مختلفة وبأساليب متنوعة للقتل والتعذيب والدفن احياء.

لقد كانت معهم صاحبه المنزل في تلك المنطقة التي اختاروها لتنفيذ مخططهم وكان شرطها الوحيد لتسليم بيتها للإنجاز هو البقاء برفقتهم وخدمتهم رغم ثنيها والعدول هذا الشرط وهذا للمخاطر المحيطة بهم وتدخل احد الرجال الذي يحترمه الجميع فكان لها ما ارادت احبوها وتعلق بها واطلقوا عليها "الجدة شيدا" هي عجوز غزا شعرها البياض وتجاعيد وجهها بدأت تظهر للعيان انفها مدبب قامتها متوسطة حركتها متوسطة ماهرة في فنون الطبخ ممرضه سابقا عاشت طفولتها في يسر وترف لان والدها ميسور الحال ورثه ثروه عن والديه وهو وحيد

التضحية التي التها على نفسها هو تأثرها لما رأت من اهوال تطال قومها وبحر الانتهاك للحرمات الذي يندى لها الجبين ومروق صارخ على البشر بشريه وحقوقها الأساسية.

كانت تواسي وتطعم وتضع لهم الجو العائلي رغم ما يعانون من ضيق وجوع فعلا انها اثرت البقاء معهم على خوفها الاسري الذي كانت فيه مع اسرتها في منطقه ليست بعيده عن بيتها القديم من ابناء واحفاد تربوا على عطفها وحنانها فكانوا جميعا شغوفون بها انما ارادت ان تحقق امرين هو العيش في بيتها الاول وخدمه ابناء وطنها فضحت بكل شيء

ظروف الاشغال الشاقة وما يحيط بهم زاد من معاناتهم حيث يخرج أحدهم اثناء الاشغال بسرعه لقله التهوية وصعوبة العمل والآلات التي يستعملونها شبه قديما ولا تفي بالغرض سريعا.

احد الايام الشتاء الباردة جدا والثلوج تتساقط على سفوح الجبال المحيطة فكستها بالبياض والعدو الاسود يترصد تحركاتهم وسكناتهم ويحاصرهم من كل الجهات والمؤونة على وشك النفاذ اصيب احد الرفاق في ساقه نتيجة سقوط قضيب حديدي عليه وضع على سرير خشبي والارهاق والاعياء يبدو عليه قدمت له اسعافات اوليه من طرف "الجدة شيدا" فهي على دراية بالتمريض في انتظار قدوم الممرض الذي ذهب ليجلب بعض الأدوية والمستلزمات الضرورية للإسعاف رغم شحها والويل لمن قبضت في حوزته... ارتفعت درجه الحرارة لديه والجو خارجي يبارد مع سماعي دوي الانفجارات واصوات المدافع والرصاص من حين لأخر اغمي عليه حتى اعتقد من حوله انه توفى بعد لحظات حرك جفونه ثم فتح عينيه بعد ان خفت حرارة جسمه طلب الماء اسند على الجدار يتعاف بعض الشيء دخل الممرض ومعه طبيب جراح ثم شخص الإصابة طمئن الجميع بان حالته ليست بالخطيرة او المعقدة ضمده ثم امره بالعدول عن الاشغال حتى لا تزيد الإصابة وتعيفه عن الحركة والمشي مستقبلا.

اقتربت منه "الجدة شيدا" تحمل في يدها صحن من الحساء الساخن قال لها ذات يوم انه الذ مذاق ذقته في حياتي شكرها على حسن صنيعها ثم قبل يديها وذرف دموع الحسرة والالم لأنه سيفارقهم ولا يدري هل يلتقيهم مره اخرى ام لا ودع الجميع وكلماته غيبتها الغصة و خنقتها

اتخذ عصاة تساعده على المشي ثم اختفى عن نظرهم استأنف الرجال اشغالهم الذي دأبوا ان لا يتوقفوا ليلا ونهارا يسارعون الزمن للدفاع مدينتهم وادخال المؤونة وكل ما هو ضروري للدفاع عن النفس والعرض والشرف انتصف النفق والاشغال جاريه رغم ما يكابدونه من مشاق ومتاعب وصعوبات جما فقال احدهم: عندما لاحظ الوجوه شاهبة واصابها حزن شديد ان هذا هو قدرنا الذي كتب لنا فلنكتبه بعروقنا ودمائنا ونسطر صفحات ناصعه لتاريخ لا يمحى من الذاكرة الأبدية لهذه الارض الطيبة الطاهرة الزكية والمعطاء نضحي بكل غال لأجل ساعة الحرية التي ستزف مهما طال الزمن واستمر العدوان ويذكرون التاريخ اننا جيل صنع مجدا.

عايش أحد الاصدقاء الثلاثة حادثه اليما تحرك مشاعر الحزن والالم وتداس خلفها ادميه الانسان فما بالك إذا كان عنوانها البراءة وهي في قلب العاصفة ولها نصيب من المحرقة البشرية التي ادت الى تعريه مجتمعات تدعي الحرية والكرامة وحقوق الانسان!؟ في هذه المعركة الحامية الوطيس وموازين القوة المادية مختلفة والحصار الجائر بين من يملك العدة والعتاد وطرف اخر يملك سوى الإرادة والعزيمة والايمان بعدالة قضيته لردها الظالم الطائل فمنعت عنه وسائل الدفاع عن النفس على قلتها وبعضها بدائي... لكنه أصر على انتزاع حقوقه وحريته باي ثمن كان ودحر العدوان الغاصب من ارضه

النار مستمرة والقنابل تنفجر لا تنقطع صداها والارض زرعت الغاما والسماء تغطيها الحوامات بأزيزها المزعج المرعب خاصه الاطفال والنساء واوقف براءته امامه يأتيهم حاملا في يديه لعبته المفضلة والتي لا تكاد تفارقه حتى من نومه في احدى الضواحي دون علم من اهله فأصابته شظية في عينيه ففقد البصر دار حول نفسه يبحث عن لعبته لقد اظلم كل شيء امامه بترت ساقه ويصرخ وينادي ماما بابا فلا مجيب اه اه لقد وقع المنزل على رؤوس من فيه نتيجة لقذيفه صوبت بأحكام او كان القدر ان ينجو اباه بأعجوبة من تحت الركام فاقدا احد اطرافه يتهادى في تنقلاته لأنه اتكئ على عصى اصيب والده بصدمه كبيره فهو ابنه الوحيد الباقي من اخوته بعد مجزره راح ضحيتها هذا العدو لا يفرق بين الانسان والحيوان والبراءة المسالمين حتى الشجر لم يسلم من براكن هذا الكيان المعادي كلما تذكر هذه الحادثة

الأليمة فتحت له جرحا لا تندمل فهي صفحات من القهر والذل والهوان فتشتعل في كيانه نارا وقاته لتلك الايام التي مرت بها بماسيها واحزانها ما ان تطوى صفحه الا امتثلت امامه صفحات اخرى هكذا هي حياته وما يعيشه اليوم من مواساة مع رفاقه فلكل واحد منهم صفحات متشابكه فيما بينهم جمعتهم للدفاع عن مدينتهم وكسر هذا الحصار المقيت في وضح النهار والمقيت في وضح النار وتحت اشعه الشمس!؟... لمنطري حقوق الانسان والعيش الكريم للفرد في ارضه وعدم المساس بحقوقه الأساسية لكن!

روى أحد الناجين فشاهد بأم عينه مجزره أطلق عليها "مجزرة سوق مركلة" في سريري بنتيسا طبعا ليست الوحيدة لكنها هي الافظع لقد راح ضحيتها الالاف من البشر اغلبهم مدنيون بين قتيل وجريح جراحهم التي تساقطت في مكان مكتظ كأنها براكين ثارت للتو تخرج حممها اكلت الاخضر واليابس لا تبقي ولا تذر!

هكذا وصف المشاهد المروعة التي اختلطت فيها الدموع بالدماء لقد كانت كلماته تخرج بحشرجة ويسلها بصعوبة بالغه والعرق يتصبب من جبينه ويلتفت مذعورا لقد اثرت فيه وجعلته مصدوما كلما تذكرها قام العدو بعد ذلك بحرق الجثث وحفر لها خندقا ثم دفنها بالجرافات... اه لقد نزعت عنهم قيم الأدمية ثم قال بحرقه والم يعتصران كيانه وعيناه ممتلئان بالدموع: يا لها من مجازر تجاوزت كل الحدود فهي وصمة عار في جبين الإنسانية لا تسقط او تمحى من الذاكرة الجماعية للشعوب التواقة للحرية والانعتاق من ظلم وجور اعداء البشرية انه الكابوس الذي جثم على رقاب المستضعفين فحكمت سلطة قوة السلاح

ان المبادئ والقيمة او ما يسمى بالقوة الناعمة الى مكان لها انتهكت كل الحرمات ومبادئ حقوق الانسان وعاش مضطهدا تحت سماء ارضه هي قضية حقيقيه قالها أحد الرفاق الثلاثة في احدى جلساتهم

تركت فيهم الاثر المحزنة لتلك الحقبة المظلمة الكالحة مما عايشوه وشاهدوه من جرائم بقيت محفوره في ذاكرتهم ووجدانهم كلما زاروا نصب التي شيدت لذلك اه انها صفحات بجراحها

المفتوحة تبقى منقوشة في قلب الذاكرة قلب صفحات ذاكره الصور التي كلها توثق لجرائم ضد الإنسانية توقف في أحد السور وعاد بذاكرته لقد كان هجوم العدو على مدينته سرير بنتيسا ص24 ففر الاف الى منطقه حسبوها امنة تسلم العدو الرجال والصبية اما النساء والاطفال رحلوهم رحلوا الى منطقه أخرى؟ ...

ليتهم تركوهم وحدهم لمصيرهم يواجهون قدرهم لعدو متغطرس متترس بسند يحميه ويداعمه الشعب اعزل قبل ان يحملوا سلاحهم للدفاع عن النفس او يلتحقوا بإخوانهم بعد ان شكلوا مجموعات مسلحه نتج عن ذلك كر وفر ثم فروا الى الغابات المجاورة للمدينة فلاحقهم فاصبحوا بين قتيل وسجين اما مصير الرجال والصبية مجهولا ربما دفنوا احياء في مقابر جماعيه او احرقت جثثهم بعد التنكيل والتعذيب الذي تفننوا فيه وقل نظيره فلا رادع لهم ان انه العدو الكابوس كالوحوش المفترسة الذي التي تتضور جوعا قد يكون لها بعض الرحمة لفريستها فهم فاقوا ذلك كله فماذا تنتظر منهم الا القتل والتعذيب وفنونه.

كم التنكيل والتمثيل بالجثث اما مصير النساء اما مصير النساء والاطفال يبقى طي الكتمان ولكنه التعدي والاغتصاب وقطع رؤوس الاطفال امام امهاتهم او اخذهم الى الملاجئ!؟... انه الحقد الذي ملا قلوبا لا شفقة ولا رحمة لمجتمع عار من الحماية الحقيقية

كم نال منهم التعب وهم ينجزون مهامهم في ظل شتاء قاسي قسوة عدوهم المتربص والمترصد بهم والدوائر تكاد تضيق بهم لم ولن تمحى من ذاكرتهم تلك الفترة العصيبة التي قضاها تحت وابل البرد والرصاص والنيران المسعرة والمحيطة بهم من جانب وما يردهم من صنوف التعذيب والتنكيل التي يعيشها بني جلدتهم في هذه الظروف يقاومون وينازعون الايام لتكمله امل ينتظره الجميع بحرقه جارفة قال: وهو يردد كلماته يواسي بها بعضهم البعض وما النصر الا صبر ساعه ها قد وصلنا الى مشارف املا يحدون الوصول اليه رد عليه صاحبه...اه... لقد تذكرت حادثة وقعت لي عندما كنت اؤدي ما اوكل تنفيذه حيث وقعت على قدمي حجارة كنت ارفعها

فأحسست بان الارض تدور بي ثم غبت عن الوجود وعندما استيقظت وجدت "الجدة شيدا" بجانبي وهي تردد عبارات النصر والحرية رغم الالم فهي دائما تعيش بالأمل والتفاؤل تبادل ثلاثة ابتسامه الامل في تلك في تلك الجلسة فاضحت كلها جلسات للذكريات ولا تخلو من التفكير في الحاضر

.....

في احدى الجلسات التي اختلط فيها الحاضر بالماضي قال ثالثهم: لقد عشت قصة من ذلك الجحيم وما الفيَّ كثيرا تفكيري في مصير الطفل الان لقد اودع في احد مراكز الرعاية للأيتام لدى منظمه رفقه اطفال اخرين قال اوسطهم: هيا احكي لنا واسرد احداثها: تناول كوب الماء ثم تنفس الاسترجاع وقال: انها قصة جرحها يكوي اضلعي وتابع الحديث اثناء فرارنا والعدو يلاحقنا في كل الربوع من ارض سقيت بدماء ابائنا واجدادنا لنعيش التشرد واللجوء في الجبال الوعرة وتضاريسها القاسية والجموع في المسير بين مسرع الخطى او ومتهادئ في مشيته ويلتفت خلفه خوفا من وصول العدو المجرم الطاغي المغيب لكل الاعراف والقوانين التي تحكم البشرية زاد صراخها وجاءها الم الوضع سمعها طفلاها ذوي الخامسة وثلاث سنوات فاخذ يصرخان معها تقدمت لها سيده تبدو انها مرت بمثل هذه الحالات تنحت جانبا تحت شجرة بسطت لها فراشا لقد تمت الولادة في هذا البرد الشديد والثلوج تكسر المرتفعات فحولها الى شبه ثياب بيضاء والمسالك اصبحت اكثر وعرة لوجود الثلوج فكان لازما مواصلة المسير لبلوغ الاماكن الأمنه ؟... كيف تواصل هذه النفساء المسير والانتظار بلحق بالجموع الضرر تحركوا جميعا ومنهم من لم يتوقف اصلا كان منظرا كئيبا وحزينا لامرأة في الدقائق الاولى من النفاس تمشي على قدميها في طقس كهذا ووجع الوضع كان الطريق وعرا لا توجد وسيله لتحمل عليها فقد تمشي في هذه الحالة لقد حدث ما كان متوقع خطط بعض الخطوات ووقعت مغشيا عليها ما لبثت ان فارقت الحياه حفر لها قبر على عجل ثم دفنت فيه اما الوليد فلف بقماشي واخذته احدى المرضعات وواصلوا طريقهم ثم لحق الوليد بأمه بعد ان تعرضوا لأطلاق نار كثيف قتل

منهم الكثير ومنهم احد الطفلين اما الاخر ذو الثلاث سنوات اصيب بشظايا طلق ناري فقد ذاكرته لهول الحدث وهو يعالج في المستشفى ثم ابن يذهب بعد ذلك؟

تشكلت عصابات للسرقة واخرى ميلشيات مسلحة احرقت البيوت بعد السطو عليها والاعتداء واغتصاب النساء وقتل البراءة والتفنن في الاساليب الوحشية بقطع اجزاء من الجسم وفقئ للعيون وقطع الاذن ورسم الصلبان على الاجسام بالسكاكين ويتبعون ذلك بالاحتفال بعد اقتراف جرائمهم التي تتم بأوامر تتعلق بالإبادة القيَّ الاحياء في الابار، وضرب الاطفال على الصخور، اقتلوا اذبحوا وارموهم في الأنهار، اتركوهم للكلاب الشاردة، انه سواد القلب والحقد الذي يملاه، لم تسلم منهم حتى نبش القبور وتدميرها انه المرون عن الطبيعة البشرية هذه المليشيات هدفها التدمير وطمس كل المعالم الدالة على الحياة ويتفاخرون ويحتفلون بالرقص والغناء على عذابات الاخرين ويتلذذون بها ويجاهرون بفرحهم على ما قاموا به من قتل وتعذيب واعتداء واغتصاب وسرقة وحرق انهم كالوحوش في اجسام بشرية.

رفع نظارته السوداء لمسح دموع بللت مقلتيه ثم تاه في تفكير يعصف ذاكرة طبعت في وجدان ومختال الشعور للتطهير العرفي والإبادة الجماعية لأهل البلدة قال لرفيقيه اتذكرون الجسر الذي على احد الانهار قتلوا الالاف ثم القوا بجثثهم في النهر حيث يفتشون الملابس ثم ترمى انها محارق وجرائم فاقت كل ما يتصور العقل البشري رد عليه اوسطهم واشار بعصاه يمينا وشمالا كل هذه الربوع شاهدة على مجازرهم وتاريخهم الاسود الذي دون وعلمت به البشرية على هذه البقعة التي ظلم اهلها وشردوا وهاجروا قصرا قال اخرهم ساردا ما روي له لتاريخ ماض ان سيدة تسمى "خربزاكاتوفيش بيدك" انها القيت في بئر مع جثث كثيرة لأطفال ورجال ونساء لانهم حسبوها من عداد الجثث دبت فيها الحياة بين الجثث وفتشتها لعلها تجد ما تسد به رمقها لقد وجدت كثيرا من الخبز في جيوب الاطفال والقى الرعاة لها مرتين الخبز فكان

قدرها ان تخرج للحياة من جديد قالت في البداية كنت خائفة جدا ثم اعتدت على كل شيء وزال خوفي وفي البئر لم تظهر رائحة كريهة شديدة قضيت قرابة ثلاثة اشهر بعد ذلك انقذني الفلاحون في العربة وهزلت كثيرا واصبحت كهيكل عظمي ثم ختم ما روي له وهو يحاول ابعاد هذه المأسي والاحزان عن ذاكرتهم يا رفاقي، الحياة مستمرة بنا او بسوانا تحفظ الحاضر المعاش والمستقبل هو الامل.

.....

كنت شغوفا بان يسرد لي صاحبي كيف م العمل او حتى انتهى رافقته في احدى زياراته لما يعتبرها انيسة في الوحشة رغمّ كرياتها القاتمة الحالكة فما يكاد ينبش فيها الا وسبقته عبراته حتى تحمر عيناه وبصره الذي قلت حدته على ما كان عليه سابقا، حتى انه دائما ما يوضع في ابراج الحراسة للمراقبة، جلسنا تحت شجرة هي جزء من الذاكرة في منطقة منزوية ثم قال لي: اتعرف يا بني ان انجاز عمل كهذا والاخطار تلاحقنا ما يقوم به الا رجال حملوا هم وطنهم وقضيته واكفانهم ترافقهم ولا بأس ان أكمل معك الحديث او الجروح الغائرة التي عشناها يا بني ما قامت به "الجدة شيدا" او كما يحلو للبعض "ماما شيدا" انها تقاسمت معنا حلو ومر ذلك الزمن العصيب كانت لنا دافع لنكمل مشوارنا استمر العمل وبالمخطط المتفق عليه اشتد الحصار الخانق على مدينتنا واصبح الجوع والعطش والموت هو اخر المطاف او هي النهاية التي ننتظرها فكان شهر حزيران (يوليو) هو اخر يوما في تشييد هذا النفق او كما كنا نسميه نفق الأمل عمت البشرى بيننا لقد عبر منه الافراد والمساعدات الغذائية والطبية وما نحتاجه كحد ادنى لتحقيق الصمود والتصدي لالة العدو وزمرته التي لا تفرق بين الأخضر واليابس فهي تعمل بمنهج الأرض المحروقة ومرت كذلك بعض الذخائر للدفاع عن النفس فرجعت الحياة الى طبيعتها نوعا ما ولمسارها المألوف،

يا بني ان حياتنا قبل هذا الإنجاز معيشة ضنك وحزن مستشرى، انما ارادانتا كانت اقوى فتحملنا لأننا اهل هذه الأرض فيها نموت او نعيش وهذا هو شعارنا وها انت تراني اليوم أقرب الى حفرة القبر.

قلت له: يا سيدي أنتم ارجعتم فينا حب الوطن والتعلق بثراه ثم ودعته على امل لقاء اخر قريب وهو يلح عليَّ بذلك لان ذاكرته يراد بها ان تسجل وتوثق في صفحات التاريخ.

كثيرا ما يتردد الرفاق الثلاثة على اسوارها ويحنون للذكرى ولرفاقهم هناك، ليعيدوا بعض المشاهد الظالمة لمسرحية أخرجت بأحكام لتصفية عرق واجتثاثه، سلم أحدهم وريقات كتبت بالدموع لا بالحبر انها وريقات تدل على بشاعة هذا الماكر الجائر، صدمت وانا اصفحها انها جرائم حتى الوحوش لفرائسها قد لا تقوم بها، انها صفحات مليئة بالعذاب والتنكيل والجبروت وما لا يتصوره العقل البشري فهذه أصوات ناعمة ارتفعت ببكائها لتوصل صوتها ونحيبها للعالم...

كم من امرأة مكلومة تكلى ترفع يدها الى السماء تطلب القصاص العادل لهؤلاء المجرمين ... اه... يقرطون النساء الحوامل والتمثيل بجثث الاجنة ورميها كرة، كم من رجل عجوز ركلوه ودفعوه الى قبر جماعي وهو حي؟! ... انهم برابرة فيدفنونهم في قبر حفروه بأنفسهم سواء كانوا احياء ام قتلى؟! ... انها البراءة كم أحرقت ومثل بالأجساد الغصة بالرصاص وهم يفتخرون بعدد الرؤوس التي قطعوها...

عشش وفرخ فيهم الشر واستحوذ على قلوبهم الصلدة هذا العدو الكريه السمة والوجه المشؤوم انهم ايادي قذرة مروا في التاريخ لقد كانوا يتباهون بقتل الزهور البريئة... خطفوا الأطفال من امهاتهم ليربوا في كنفهم إذا دخلوا المدينة يحولوها الى اشباح،

قال شاعرهم:

كان الصمت حزينا والدموع حارة حتى شعرهم اسود كعقولهم المتعطشة للدماء البريئة.

إنهم فجرة نالوا من النساء والفتيات في عمر الزهور في الأقبية حيث الجريمة المنضمة!... لقد قضت نحبها فتاة صغيرة عمرها 14سنة أثناء الاغتصاب... إنهم أحلاف العصر الحديث كأحلاف القرون الوسطى لأسلافهم.

كم هي المفارقات العجيبة التي تدل على كره دفين، الجيران هم من يؤذنون جيرانهم، فعاشوا في هلع وخوف بادي على الوجوه.

اتخذوا النساء للقيام بشؤونهم غسل ملابسهم وطهي الطعام وتطبيب جراحهم... أما في الليل فيقومون باغتصابهن والتداول عليهم حتى يحملن ويتركوهن للميلاد، ما أخسسهم من عنصر بشري شيطاني وصلت بهم الجريمة وأفكارهم الجهنمية إلى زراعة أجنة القطط يا لها من وحشية.

ما زلت أطلع على تلك الوريقات والمجازر التي لا تنتهي.

دخلت المليشيات والعصابات الغاشية إلى إحدى المدن وعاشت فيها خرابا وفسادا.

دمروا البيوت على الأحياء، شنقوا الرجال في الساحات العامة، أحرقوا المواشي والمزروعات وأرعبوا الطبيعة، نكلوا بالشيوخ، داسوا على كل المقدسات بأحذيتهم النجسة، تعاطوا الخمور وأقاموا الاحتفالات داخل المباني العامة رفعوا راياتهم، رقصوا وغنوا بأشعارهم العنصرية وبعبارات التهكم، لقد تركوا المدينة خراب ودماء واشلاء والجثث ملقاة على الطرقات استولوا على الممتلكات الخاصة والعامة... إنها عصابات يلفظها التاريخ والعقل البشري إنهم غثات متجبرين ومتسلطين عشاق للدماء.

إنها قيض من فيض فصفحات الإجرام متعددة وممتدة.

حدثني أحدهم وهو يسرد لي ما اطلع عليه أيام المحنة من كتابات لبعض زعمائهم من أوامر تتعلق بالإبادة أقتلوهم نكلوا بهم رملوا نسائهم واغتصبوهن واتركوهن عندكم حتى تضع حملها، قطعوا رؤوس الأطفال أو عذبوهم أمام أمهاتهم وآبائهم وأضربوهم على الصخور اقطعوا أطرافهم أشعلوا النار في أجسادهم لا ترحموهم أتركوهم جوعى وعطشى في العراء.

أكشفوا عورات الرجال ثم نكلوا بهم ادفنوهم أموات وأحياء في مقابر جماعية أسكبوا عليهم الخمر جعلوهم كالعبيد، ضعوا القيود في الأيادي وارموهم في زمهرير البرد حتى يتجمدوا ناولوهم أطعمة الحيوانات وأرغموهم على أكلها.

اجدعوا الانوف وفقئوا العيون واقطعوا الالسنة واكسروا الأضلاع والأصابع واخصوهم... آه يا بني كم هم مارقين عاثوا في الارض فسادا

جلساتهم مازالت مستمرة لكنها بدأت تتآكل كأعمارهم ونقدهم في السن في هذه المرة تخلف أوسطهم نظرا لوعكة صحية ألمت به جعلته يبقى طريح الفراش.

قال لصاحبه مذكرا لأيام خلت لحادثة طريفة حدثت بينهما تكاد تنسى يا صاحبي عندما كنت أناديك حينهاانتابتني غصة لأني كنت أحس بجفاف في حلقي ولم يكن لدينا الماء فتغيرت نبرة صوتي وجدار المقهى الامامي يفصلنا ففزعت واصفر وجهك وكاد يغمى عليك لولا أنى ظهرت لك في الحين لقد ظننت ان من يناديك هو أحدهم الذي وعدك يوما ما سأعدم حلمك وادفنك حيا... تبسم قليلا ونزلت دموع لم يستطع ان يخفيها ثم تأوه وقال له: اشعلت في داخلي حزناعميقا كأنه السراب

رد عليه بقوله ما نحن يا رفيقي نعيش الحلم الذي طالما راودنا رغم المنغصات والمتاعب والمطبات الكثيرة لا عليك نحن جيل قدم ما عليه فليواصل الجيل الحاضر البناء والتشييد والتنمية

قال له: مالنا أيها الرفيق لا ننسى ذلك الزمن الماضي؟ ام ان احداثه وصفحاته المؤلمة هي من تركت بصمتها في وجداننا

نعم يا رفيقي هو ذاك فالتاريخ للعبرة والحاضر للبناء والمستقبل للاستشراف

...اه لقد نسيت ان اعلمك بصاحبنا لم يأتي اليوم ليرافقنا في الجلسة لقد المت به وعكة صحية وهو يتعافى في بيته

قال وهو يرد عليه: اذن علينا بأداء الواجب وعيادته والاطمئنان عليه اما اليوم فننهي جلستنا بأخبار مفرحة لنقضي ليلة هنيئة ومريحة وبأحلام سعيدة هيا قل ما عندك

يا رفيقي علينا ان نعيش دوما بالأمل والتفاؤل ونرضى بقدرنا

ما زلت لم تخبرني بما يفرح ويبهج

صبرا قليلا

لا لا لقد اشتقت لذلك:

اصغي الي جيدا لقد خلدت حكومتنا أحد معاركنا في لوحة تذكارية في ساحة عامة وكتبت اسماءنا بماء الذهب تحت صورنا ووجهت لنا دعوة لحفل تكريم لمن قاموا بهذه المعركة وابلوا بلاءا حسنا في الدفاع عن مدينتنا والوقوف سدا منيعا في وجه الأعداء لاغتصابها

انه امر مفرح حقا في زمن ذكريات حزينة لا تنتهي، جميل اذن موعدنا قريب في ذلك الحفل المبهج لذاكرة وضعت النقاط على الحروف في صفحات مشرقة في سجل الخالدين للتصدي والصمود كالصخور العاتية ومسددات الرياح لجيل حمل روحه على اكتافه لحماية ... الوطن وارض ترعرعنا فيها وتشربنا حبها وحلمنا

حضرت احدى الجلسات فقال اوسطهم وهو يثنيهم عن التحدث عن ذلك الزمن الماضي القريب: كفانا نبشا فيه لنعش الحاضر

قال له صاحبي: ان ما نعيشه الان نسخة متطورة من الماضي القريب والبعيد وما نسمع ونشاهد في الشرق دليلا على ذلك

تدخل ثالثهم وقال: ان اهتمامنا بالحاضر لا ينسينا الماضي فهو التاريخ والعبرة واخذنا منه دروسا للمستقبل

فالشرق الان يرزح تحت وطيئة احتلال غاشم وغاصب للأرض هو كيان زرع في قلب وطن معجز اهله وأصبحوا لاجئين في الشتات وداخله في الماضي والطرد من بيوتهم التي ورثوها عن اجدادهم منذ زمن سحيق

طلب مني صاحبي ان ارافقه لزيارة رفيقه في بيته ولنكمل الحكاية الذكريات التي بقيت عالقة في ذهنه او عبر البوم صوره او خربشات في مذكرات لم يجمعها فهي متناثرة في وريقات

قال لي في احدى الجلسات معه: هل يمكن ان تجمع هذه الصفحات والصور وتوثقها في كتيب ليبقى للأجيال اللاحقة تاريخ وعبرة فوعدته بذلك مستقبلا، الهدوء يعم المكان إلا من الحان الطيور بسحرها الاخاذ التي تعلوا الأشجار فتعزف سنفونية تطرب الآذان مع وجود نسمات خفيفة كانت الشمس مشرقة ترسل أشعتها الذهبية اتخذناه للقاء و طاولته التي دوما يحكي عنها و كيف نحتها فهي جزء من حياته كما يقول و يتصور احضرت لنا زوجته بحركات بطيئة قليلة مشروبا صنعته بيدها و المفضل لدى زوجها و بدأنا نتناول أطراف الحديث و اطمأننت على صحته حيث يتردد على العبادات، كما هو الحال الغالب من هم في مثل عمره .كان موضوعا على حافة الطاولة بغلافه الاخضر ذو الخطوط البيضاء جذبه إليه ثم قال لي سنبدأ من حيث توقفنا فتحه كانت الصور أعلاها بالأسود و الابيض و الاخرى ملونة أشاهد بعضا منها تغيرت ملامحه و هو يصوب نظره الى الصور ثم تنهد و أخذ نفسا عميقا و قال لي: يا بني ان هذه الصور توثق نهاية إنجاز ما تحدثنا عليه سابقا لاحظ معي هذه الصورة انها لي مع رفيقي

ونحن نخرج لنرى المكان الذي وصلنا اليه والامل الذي عشناه تحقق في ذلك اليوم اما الصورة الثانية فهي لقائدنا وهو يقدم لنا باقة الورود تحية وشكر وعرفان مع كل زملائنا الذين انجزوا وحققوا ما يخفف ويرفع الغبن عن اهل المدينة اما الثالثة شاهدة حديثة اخذتها عند زيارتي لتلك المنطقة والتي هي اليوم اصبحت متحفا لوطن ضحى من اجله الرجال، كانت دموعه سباقة كالعادة دوما ممزوجة بفرح وحزن، فرح لما يعيشه اليوم في وطنه حرا وحزن لمآسي وتضحيات ليعيش هذا اليوم.

ربت على كتفيه وقلت له تلك الايام مضت تاريخ ناصح لا يمحى وصفحات موثقة للأجيال القادمة، فعش يومك فأنتم السراج المنير والسهول للدروب الوعرة التي خضتموها فلا تنكر جميلكم فلتعيشوا بسلام

كانت جلسة ممتعة وحميمية تمنيت انها لا تنتهي إنما الوقت يحاصرنا

لقد غربت الشمس من الغروب ودعته على أمل بلقاء متجدد مع الرفاق، دوما ما يقدم لي الوصايا ونصائح قائلا ومرددا كلمات صداها يعم الآفاق يا بني أن الوطن جزء منا فلنحافظ عليه ونحميه وندفع من أجله كل غال ونفيس "

هذه العبارات والحكم شكلت لي نصارا تبنيته في حياتي وأضاف قائلا لا يقاس الوفاء بما تراه ام عينيك بل بما يحدث وراء ظهرك.

غاب رفيقهم الأوسط عن الاستمرار في الوجود في تلك الجلسات التي أصبحت جزء اساسيا من حياتهم فأضحت كأنها إدمان ونعم هذا الإدمان.

قال صاحبي: أن غياب رفيقنا عن مجالسنا وانقطاعه إلا لاسقام ألمت به واقعدته عن الحركة وزاد على ذلك فقده بصره الضعيف اصلا فأصبح قعيد الفراش إلا من بعض الحركات الخفيفة وكلماته القليلة لثقل لسانه وذاكرته التي بدأ يفقد جزءا منها، دخلا عليه وهو في حالة من شبه الاغماء جلسا بقربه يمينا ويسارا وهما يتفحصان ملامح وجهه التي تكاد تغيبه النحالة الشديدة التي اصابته والتجاعيد التي غزت وجهه الا من شامة على ذقنه كأنها ختم دال عليه انتظروا بعض الوقت ليستفيق من غيبوبته تحركت جفونه قليلا وتمتم بعض الكلمات همسا ثم قال بصوت خافت يكاد لا يسمع لو كان هناك بعض الضجيج عبارة مقتضية تركتهما يذرفان دموع الحزن وينكى لها الجرح الذي لا يندمل حيث قال: فلنلتقي هناك يا رفيقي اقترب صاحبي من وجهه وقبله ومسح على رأسه وقال له بعد ان اقترب من اذنه لان السمع اصبح ضعيفا لديه : نم قريرا يا صاحبي اننا نعيش في ظل تضحياتنا جميعا

قال له وهو يهمس: بلغ تحياتي له واشكره على ما قدمه لي تلك الليلة الشتوية الباردة والنار تحرق الأجساد ثم تبسم قليلا ودعاه لمصافحته رغم أنه لا يشعر بهم لقد فقد الوعي تماما. تنفس صاحبي بعمق وقال لرفيقه: ها نحن أصبحنا اثنان ولا ندري من يبقى وحده.

قال له: إن الموت والحياة هي قدر وساعة.

كان الجو ربيعيا والشمس مشرقة والسماء صافية ورائحة الازهار والورود منعشة ، جعل جلستهما الحميمية ينسيهم بعض الذكريات المحفورة في وجدان التفكير وتغطى حزنا لا يفارقهم، استأذنت الجلوس معهم ، ما شد انتباهي رغم روعة المكان جماله وهدوءه وأصوات العصافير وهي تلحن نشيد الفرح والبهجة والسرور أن ملامح وجههما يعكر صفوها أمر ما لا اعرفه تبادلت معها أطراف الحديث وبعض قضايا الساعة وتطوراتها في دنيا الناس اليوم لأن لهم الإلمام تقريبا بالصراعات والأحداث التي نعيشها بالإضافة الى ذلك مستواهم الدراسي هو جامعي لكن لظروف طارئة وصادمة تركوا مقاعد الدراسة حيث كانوا على وشك التخرج ونيل شهادات عليا، إنما هم الوطن ألزمهم التخلي ليعيشوا في وطنا عشقوه وضحوا لسبيله والارض التي فتحوا عيونهم اول مرة فيه.

سألت صاحبي: ما الامر؟

قال لي: يأبني إن رفيقنا قد فارق الحياة وتركنا كالأيتام فهو جزء من قطعة متكاملة نشكلها نحن الثلاثة.

قلت له: كلنا سنفارق بعضنا ولا يبقى شيء في هذا الكون الا خالقه.

قال: نعم

تدخل رفيقه وقال: كنا نحن الثلاثة كتاب يروي صفحات من تاريخ شعب تعرض للعدوان وتكالبت علينا قوى الشر بإرادة الشعوب وعزيمة الرجال دحر هذا الغاشم البغيض لنعيش على ثرى بلادنا احرارا كما ولدتنا امهاتنا.

قلت له: صدقت وما انا الا أسجل هذه الصفحات المضيئة والمظلمة

في حياتك خلال تلك الحقبة وما تلاها قال الي بصوت واحد: لك منا التحية ونتمنى ان تكتب هذه الصفحات بصدق ومسؤولية

قلت: اعدكم بذلك يا ابوي فعيشا ما بقي لكما في كنف هذا الوطن الذي سجيتموه بالدماء الطاهرة الزكية والدموع الحزينة فلا وطن لكما غيره.

رد صاحبي: شكرا ألف مرة ولن نعطيك حقك ايها البطل ثم ودعتهما ووعدتهما ان نلتقي قريبا.

قال لي صاحبي: انتظر قليلا ثم أخرج من حقيبة الصغيرة دفترا وصورت وأردف قائلا: هذه الصفحات و الصور دونها رفيقنا نسلمها لك حتى توثقها كما وعدتنا رفعت رأسي ثم قلت له: إنها في الحفظ والصون و سنجمع بقية الوثائق كتاب شاهد علي هذا التاريخ الاسود.

كانت رغبتي ملحة لأجمع ما حصلت عليه من وثائق وصور وصفحات من المذكرات

الشخصية حتى لا تضيع وتندثر وتهمل كل املي إن ترى النور في كتاب يوثق تلك الفترة المظلمة وهما على قيد الحياة

كم هي مأساة وانا اتصفح تلك المذكرة التي كتبت بمداد الحرية لجرائم ومعها هذه القصة من القصص التي تروى ولا تنتهي في وجود هذا العدوان السافر على الابرياء من اطفال ونساء مدنيين عزل هي قصة "مذبحة هزانوتس" عمرها 24 سنة اختها أقل منها بسنتين و اخوها 15سنة... كانت مخطوبة لابن عمها "اديب" تروى وتقول: اغلقت الأسرة على نفسها الباب ان والدهم معروف لدى العدو والمسؤوليات التي يقوم بها لان العصابات والمليشيات تلاحقهم وتركز على مناطق مخصصة ,فتذبح الرجال والأطفال تسيء للنساء ... كانت مديحة عند جيرانها عندما سمعت طلقات الرصاص والصراخ واصوات الاستغاثة في بيتها فأثنتها جارتها على عدم الخروج حتى لا تكون هي ضحية.

دلهم أحد الجيران على عنوان والد مديحة؟! أمطروا الباب بوابل من الرصاص ثم فتحو الباب عنوة وسط صراخ ام مديحة وشقيقتها ومن سوء الحظ كان أديب يزورهم... وضع القيود في اياديهم ثم امسكوا بشقيقتها لترى ما سيحدث، تناولوا خمرا ثم سكبوه على الاب ورسموا على جبينه عقيدتهم ثم ذبحوه كالشاة، ثم أكملوا ذبح البقية! ...

حدث كل هدا امام شقيقة مديحة... ثم هموا بأخذها ووضعها في المعسكر كسبية... ومن حسن طالعها كانت القوات المدافعة عن المدينة قد وصلت واكتشفت هجومهم ففر هؤلاء الجبناء وتركوا شقيقة مديحة في حالة نز الهلع والخوف لا يمكن وصفها آه... يالها من عقيدة لا تستحق أن تبقى على وجه البسيطة.

عزيزة هيا تلك المرأة التي قدرها ألا تحضر ما ألم بكل افراد اسرتها لقد أبيدت عن آخرها وخاصة اصولها وطالت هذه الفاجعة اغلب فروعها حيث أفلتت من نار السكاكين حيث تمت هذه الفاجعة الاليمة قتلا بالرصاص او ذبحا بالسكاكين كالشياه! ... انه موقف صعب ان تقف امرأة امام أحد النعوش وهي تصرخ بصوتها حتى بح فأصبح انين ونحيب لقد كان بداخله كل افراد اسرتها كبيرهم وصغيرهم وبعض الأقارب، حيث لم تكن في القرية حين تمت هذه المذبحة المروعة، اصابها الخوف والهلع لما شاهدته من دماء تسيل في شوارع القرية الضيقة، لان ما اصابها طال عائلات اخرى بيوت تحولت الى ركام، مواشي أحرقت مزروعات أتلفت لقد مرت عصابات الخراب من هنا.

قرأتها أكثر من مرة تأثرت بها وخلت نفسي أنى اعيش المأساة معهم وانتابني شعور قوي بالألم والحسرة على تلك فترة المظلمة هي قضية حزينة تناولت الشرف والاعتداء المادي والمعنوي.... تبدو أنها شابة جميلة شارفت على نهاية عقدها الثالث.

اما الان الرعب والترويع الذي تعرضت له لن يمحى من الذاكرة الفردية والجماعية مهما امتد العمر، تحول شعرها الأسود الفاحم إلى الأبيض الجليدي وغطت وجهها التجاعيد قبل الأوان، رغم الغطاء الرمادي المسدل على كتفيها ترتجف من البرد القارص وتسعل كعجوز متداعية انها عذبت واغتصبت فحملت وتحتاج إلى رعاية نفسية واجتماعية.

كانت تجلس شاردة على مقعد بسيط في بهو بارد كغرفة المشرحة لا تكترث على الإطلاق بالغاديين والرائحين الذي ترسم على ملامحهم أشد مظاهر الإرهاق والاعياء النفسي وهزال والاستياء.

كانت تتطلع إلى نافذة ونظراتها الشاردة توحي بأنها لا تبصر شيئا مما يجري حولها رغم وجود الناس بكثرة المنتحين بالسواد في المكان، تتحدث بصوت خافت كأنه همس وهي مطرقة الرأس، عينها في الارض وقالت: في أواخر الشهر مايو دخلوا إلى قريتنا يطلقون في الهواء أعيره نارية متوالية من مدافعهم الرشاشة أجبروا الاهالي للخروج إلى الشارع ثم أشعلوا البيوت على الفور، اختار العدو بعض الرجال العزل واخذوا يضربونهم أمامنا بوحشية كأنهم يعذبون حيوانات برية مفترسة.

جمعوا الرجال الاصحاء منهم زوجي جروهم حفات وشبه عراة إلى مكان مجهول وانقطعت أخبارهم وكذلك اخبار والديا الكبيرين.

قالت: وهي تجهش بالبكاء، اصطحبوا النسوة من قريتي لاغتصابهن اما من بقيا في الطريق جمعوا وساقوهم حفات تحت تهديد السلاح ومن لم يستطع المشي يذبحونه بالسكاكين أمام الجميع.

بعد الحادثة الأخيرة بأيام التقت بأطفالها وانتقلت إلى مكان آخر عبارة عن سجن كبير احيط بالأسلاك الشائكة والألغام والحراسة المشددة من رجال وكلاب مدربة ومتوحشة تأكل إلا القليل والنظافة منعدمة تماما... إن ذروة المأساة كل ليلة مجيء الوحوش البشرية للنساء والفتيات لاغتصابهن في قاعة مجاورة ثم قالت وهي تشعر بالخجل لقد اغتصبني عشرات الرجال وعشرات المرات وكان أسلوبهم قبل الاعتداء ضربا بهراوة أو قضيب معدني والكلمات البذيئة الجارحة والسب والشتم والأدهى والأمر من ذلك شعوري بأن أطفالي سيدركون ما يفعل بأمهم.... لقد فقدت الاحساس وتذكر الزمن جيدا

إنه الخريف في أواخره والليل بارد وثقيل الوطأ كاد يقتلنا الهزال وملطخون بالأقذار التي تملأ المكان والطعام دائما لا يكفي والتعذيب مستمر والكي بعواقب السجائر المستعملة والاغتصاب والقتل إنهم وحوش بشرية هكذا قالت: فحصني الطبيب وقال: إنها حامل بتوأم فقررت أنه من المستحيل أن يبقى هذا الحمل فأفلحت في التخلص منه بأن أكلت بعض الأعشاب السامة

الموجودة في المكان ثم أعادوا اغتصابي، وأصبحت حاملا مرة أخرى فلم أفلح في اعادة الكرة مرة ثانية لإجهاضه، لكني قررت الاستغناء عن هذا المولود اللقيط.

الثلوج تتساقط في الخارج اما في الداخل هناك دفء بوجود المدفئة إلا أنه انتابتني قشعريرة فتدثرت بملحفة.

إنها في حاجة ماسة إلى العلاج نفسي أكثر منه اجتماعي قالها مختص في مركز العلاج النفسي لأنها منهارة ومكلومة، ومن حسن حظها انه اخيرا التم شمل العائلة الزوج والاطفال.

تمت عدة جلسات في مركز الرعاية التخصصي فانخفض مستوى الانهيار والاضطراب النفسي ولكن آثاره رسخت في ذهنها وبدأت الحياة الطبيعية تدب شيئا فشيئا، احيانا تلاعب طفلها ذو الثلاث سنوات وزوجها لا ينفك ان يحاول دمجها اجتماعيا مع أسرتها الصغيرة.

لقد تمتمت قليلا عندما شاهدت والداها يدخلان إلى بيتها وقد نال منهما التعب والضعف الجسدي والاسقام التي انهكتهما زيادة على ذلك العدوان الظالم كل شيء من بشر وشجر وحجر وحيوان.

هذه الرسالة كتبتها كأنها أحيت من جديد:

إلى الضمير الإنساني، لقد جفت دموعي وعادت لي صحتي الجسمية وآكل كل ما لذ وطاب وأتنفس هواء الحرية.... لكن جرعة الألم والجرح الغائر في عمق ذاكرتي يبقى للأبد...

"خديجة ياليبج"

اردت في سرد هذه القصص التي كتبتها في صفحات من الالم إنما إصرار رفقائي على نشرها عدلت عن التوقف وها أنا انقل هذه القصة التي جعلت الغصة في نفسي إنها قصة البراءة، أمًا تبكي طفلها الذي قتل بوحشية امام ناظرها، وهو ابنها الوحيد الذي انتظرته عدة سنوات لقد ذهب في سراب الوحشية داسه رجل خسيس لاشعور له فهو يتفنن في أساليب القتل والتمتع بها ويتفاخر امام الوحوش الضارية الاخرى لقد أحرق قلب هذه المرأة.

إنهم يتسابقون حتى في التعذيب والتنكيل وحرق ودفن الاحياء في اخاديد يحفرونها بأنفسهم.

إنه مشهد صعب أن ترى أمًا ووحيدها قد قتل لا لشيء إلا أنه أحد ابناء هذه الارض التي ولد فيها اجداده وآباؤه، زاد نحيبها مودعة وحيدها الذي يحمله والده وملامح الحسرة والحزن تبدو على وجهه ويقول لزوجته وهي تمسح دموعا غزت عيناها إنه قدرنا لنعيش مرة ثانية عسى أن يكون لنا خليفة بعد ذلك.

ختمت هذه الوريقات بعبارة تدل على تشبث الإنسان بأرضه ووطنه الذي نشأ فيه حيث قال:

هذا وطننا ليس لنا غيره، عرقنا ودماؤنا له عربون الوفاء والسهم المتواضع الذي نقدمه له

"عزيز ميلود فيتش"

أصبحت زيارتي له كجزء من حياتي خاصة وأنه أصبح وحيدا بعد أن فقد زوجته على الرغم من وجود المعيل الذي يقوم على شؤونه، كان يدعوني ليفرغ ذاكرته كما كان يردد دوما حتى لا تمحى أو يفقد بعضا منها هذا ما استنتجته منه، احيانا يقول لي عليك ان تكملها في أسرع وقت فالزمن لا يرحم وذاكرة الشعوب هي سجل الامم للحاضر والمستقبل.

ثم قال لي: بأني اريد زيارة رفيقي هلا رافقتني إليه؟، قبلت طلبه.

لقد تغيب عن الحضور لركن المقهى الذي يسرد فيه كل شيء ماض ومستقبل يتمناه مشرقا.

كنا نجلس نحن الاثنين كالمعتاد في جلسات سابقة نتبادل الاحداث و الذكريات لديهم، اما في هذه الجلسة تختلف عما سبق احضر صورا حديثة لجولاته ورحلاته السياحية مع رفيقيه او عائلته تناول احد الصور و بدأ يتأمل فيها، عيناه تكاد تخرج من مقلته وضعها على الطاولة و تناول منديلا ورقيا مسح دموعا وهو يردد لقد تركنا وحيدين ايها الرفيق، إنها صورة لهم الثلاثة أثناء الزيارة التي قاموا بها إلى مدينتهم القديمة و التي وقفوا على أسوارها واطلالها تذكروا الماضي قال كلمات مقتضية فهمت منها انها المرارة تكررت مرتين ذاكرة لا تمحى و رفيق رحل و تركنا هدأت من روعه قليلا وناولته كوب الماء، وقلت له: رفقا بنفسك إن الحياة

عبارة عن ذكريات جميلة وحزينة، أثناء توديعه في هذه الجلسة قال لي بصوته المعهود: لا تنسى زيارة رفيقي في موعد قريب ثم أردف قائلا: سجل وقائع هذه الجلسة في كتابك مستقبلا وخذ الصور لتحتفظ بها لديك.

.....

كانت وريقات السيد عزيز ميلود فيتش تحتوي على مجموعة من الصور توثق تلك المحنة والحرقة التي مر بها ومنها:

امرأة تبكي ومعها زوجها لقد اغتصبت ونكل بزوجها، براءة بعضهم في سن 15سنة يقتلوا في الشارع العام وتترك جثثهم على قارعة الطريق، عمليات جراحية تجرى بدون مخدر والدوس بالأقدام على جثث الضحايا.

أصبح اهل الدار كاللاجئين يتزاحمون على الماء النادر وجوده انها صور فضيعة قبح هذا العدو والحزن والأسى والرعب على وجوه الامهات والأطفال بعد تدمير وحرق بيوتهم و.... من الهلاك.

اجرنا تاكسي للزيارة المتفق عليها كانت الساعة تشير الى الرابعة عصرا عندما أطرقت الباب خرج لنا طفل صغير وقال: مساء الخير من أنتم

قال صاحبي: قل لجدك رفيقك في النفق

شاهدت استغرابا لدى الطفل ثم انصرف وعاد مسرعا وهو مبتسم وقال: لقد حكى لي جدي عنك تفضل بالدخول.

كانت غرفة فسيحة بعض الشيء توجد فيها ارائك ومكتبة وعلقت على الجدار صور كثيرة لم اتأملها بعد، جلست قبالته بعد التحية عانق صاحبي رفيقه كثيرا وهما يتمتمان بكلام لم اسمعه ولكني بقيت اراقب المشهد الحميمي لرفيقيْ الدرب، سقطت دموع كلاهما على الآخر انها دموع الاشتياق والشعور بالوحدة، سأله عن صحته فقال له: بخير انها وعكة صحية المت

بي لقد اجهدت نفسي كثيرا،ت قال وهو يلتف الينا الا تعلم ان هذا الرجل هو يجمع شتات ذاكرتنا ليوثقها في صفحات التاريخ حتى تبقى لأجيالنا الحاضرة والقادمة، ... يسير السيل للمسير للبناء والتشييد والمحافظة على تضحيات الإباء والاجداد وأردف قائلا: زوده ما عندك من وثائق وصور وقصص ترويها له.

قال وهو يتأوه...انها قصص لا تكاد تصدق العدوان وجبروت دمر كل شيء أراد ان يمحي شعبا من التاريخ والجغرافيا هكذا تصور وبنى عقيدته بطمس معالم واثار وقيم شعب عاش فيها منذ القدم ان ذاكرتي نداءات تخطئ وسأروي لك اخذ منها انها مشاهد الحرق والتدمير كنت مارا في احدى القرى تتناهى الى مسمعي صراخ وعويل نساء وأطفال والنار مشتعلة في أماكن مختلفة اصابني الذعر والهلع وتملكني الخوف وتصببت عرقا لحرارة الجو التفت يمينا ويسارا لم اشاهد شيء مضيت مسرعا لابتعد عن القرية الت أحرقت بالكامل كانت محاطة بأشجار كثيفة قلت في نفسي ربما تنتشر النار وتتركها كالهشيم اثناء مروري بين الأشجار وباليتني بقيت في القرية احرق معهم ... تنفس بعمق كانه يعيش المشهد المروع وهو يغمض ويفتح عيناه انها صور غير ادمية شاهدها

صمت قليلا ثم قال: رجال عراة معلقون على اغصان الاشجار هذا مقطوع الأطراف وذاك بدون راس واخر اطرافه مقطوعة من خلاف وأطفال مرميين تحت الأشجار ملطخين بدمائهم ثم قال لقد مان يوما صعبا عليا

قلت له: كيف نجوت من هذه المحرقة حرك رأسه وقال: يا بني هؤلاء البشر ان اعتبرناهم كذلك لا يعبرون عن الادمية فهذه الحوادث تتكرر دوما لديهم فيأخذون النساء والفتيات ثم يقومون بالحرق والتنكيل والتعذيب ثم ينصرفوا كأن شيء لم يكن! ... فمن هؤلاء الاجناس تساءلت في نفسي؟

يقول لي: نجوت انه قدري وان أكون احد الشهود على هذا الزمن القبيح، ومازال لي في الحياة انفاس ونصيب عندما خرجت مسرعا متخفيا تحت جذوع واغصان الأشجار المتشابكة، فهم

في ذلك الحين أتموا محرقتهم وهموا بالخروج والانصراف من المنطقة لقد شاهدتهم من بعيد حيث لا يروني تجمدت في مكاني كالحجر وراء جذع شجرة كبيرة يتبدل منها ضحيتان عراة والدماء تسيل من جثتهما، فلا مفر لي الا الاختباء فتلطخت بهذه الدماء الطاهرة وكنت اشم فيها رائحة الحرية رغم هول المنظر هكذا نجوت ثم مدني ببعض الصور متشابهة لما تناوله اليوم صور صاحبي ووريقات السيد عزيز ميلود فيتش أما الاختلاف الوحيد، أنها فيها صورة لامرأة وهي تتوسل لأحد الرجال؟ يعيد لها صغيرها وهي تبكي بحرقة قبل يختفي عن نظرها.

قال لها: سيعود لك رجلا ثم ركلها بحذائه ودفعها لتبتعد عنه، لقد روى لي حادثة الصورة ومشاهدها المؤلمة لام فقدت فلذة كيدها اختطف من يديها وهي تعرف مصيره إما الموت أو تغيير عقيدته ليكون عدوا في المستقبل! قبل أن ننهي زيارتنا قال الرجل: يا رفيقي ربما لا نلتقي في قادم الأيام أوصيك بدفني جوار رفيقنا. أجهش بالبكاء الذي كاد أن يتحول الى صراخ، وهو يقول له والدموع تغزوا مقلتيه فأنت أصغر مني سنا وصحتك أفضل كيف تقول هذا الكلام؟

قال له: لا علينا لا تدري عن القدر الذي يخبأ لنا من منا الأول ولكن سنلتقي هناك مع الأحبة جميعا سرَّ بهذه الكلمات المعبرة كأنها نزلت عليه بردا وسلاما تبادل ابتسامة تنم على الحب الذي رباطه قوى بينهما ثم ودعاه على امل اللقاء في المكان المحبب لهما الذي يحيي الذكريات.

آلمني كثيرا عناق الوداع بينهما كأنهما قرأ لحظة الفراق، كل منهما في عين الآخر ومسح الوجه والدموع التي بللتهما رافقنا حتى خروجنا من بيته وهو يتكئ على عصاة وبخطوات متثاقلة جدا والطفل مبتسما ويقول هذا صاحبك يا جدي ويردد نفق الامل وهو لا يعي ما يقول أشار له بالسلام ولوح بيديه واختفينا عن ناظريه

أليت على نفسي ان ازيد البحث عن وثائق اخرى وصور وكتابات اهتمت بهذه المعضلة التي مرت عبر تاريخ ليس بالبعيد لعدوان غاشم على شعب اعزل، فكم من قصص تروى او قراءتها مرغبة، انها قصص مخزية ومحزنة للناجين. ما زالت تجمد الدم في العروق والجرح الغائر من

عمق صفحات التاريخ، خاصة إذا علمنا حقيقة الباقين فمعظمهم لا يعرف مصيرهم. انها جرائم عنصرية اجرامية لها جذور عميقة لدى هذا العنصر من الجنس البشري في التعصب والولاء العنصري.

انها حكايات يندى لها الضمير الحي والعقل البشري الذي يؤمن بحياة الشعوب والأمم لا أولئك الذين يعتبرون سواهم عنصرا على هامش التاريخ ولا يحق لهم الوجود بينهم فمصيرهم القتل أو تهجير أو اتخاذهم عبيد.

القصص لا تنتهي فهذه مجازر فضيعة شهدتها عدة مناطق لسلب وحرق والقيام بكل صنوف التعذيب لقد اعتمدوا كما يقال «الأرض المحرقة» إبادة كل كائن حي او جماد، هدم البيوت على ساكنيها أحياء بعد سرقتها تخلوا عن بشريتهم شيدوا مجازرهم النصب التذكارية وأقاموا الحفلات على جثث الأبرياء وترديد اغانيهم العنصرية وهم في زهو وطرب، هكذا ماتت ضمائرهم ... كم من زهور بريئة ذهبت في ظلم غادر وكم رجل مسالم وشيخ مسن حفروا قبورهم بأيديهم ودفنوا احياء إنها الجريمة التي لا تغتفر.

كم هي المشاهد البشعة التي رواها لي الرفقاء الثلاثة عن التعذيب الذي نالوه في فترة معينة ووقعوا في الأسر، شتى صنوف التعذيب المتعدد والمتنوع ومنه أن تركوهم شبه عراة في قاعة كبيرة والجو شتوي والنوافذ مفتوحة والاعتداء بأحذيتهم عند ذاهمهم للمستشفى وضربهم بأعقاب البنادق

وينتقلوا إلى أنواع أخرى من التنكيل بهم كالطلب منهم حمل الحجارة من مكان إلى اخر على أكتافهم أو يجرونها بأيديهم وهم يمشون حفاة على صخور حتى تدمى الأيدي والأقدم وغيرها كثيرا، حتى أنهم أحيانا يطلبوا من عدم ارجعاهم لتلك الفترة المؤلمة ليعيشوا بعضا من حياتهم في حاضرهم نظرا لما كانوا يلاقونه من إهانة وذل ينغص عليهم حاضرهم على رغم أنه من ذاكرة فقط

لم يبقى لأهالي مكتوفي الأيادي قاموا بما تيسر خاصة بعد أن انجزوا مهمتهم في فك الحصار.

هاجم العدو المدن الكبيرة فر الالاف خارجها للقرى والارياف والجبال، شكل بعضهم مجموعات مسلحة للدفاع مع قلة العتاد فلاحقتهم العصابات والمليشيات في الغابات ثم قامت بسحبهم وتحويلهم إلى ثلاث معسكرات او كما تسمى "مثلث الموت". إن انتقامهم هو إعادة أمجاد دولتهم التي اندثرت بفعل عدوانهم المستمر الذي لا ينقطع ومجدهم المارق.

النهاية:

الظلم والاعتداء لا يمكن أن يدفن او لا تعيده الذاكرة فالمحطات التاريخية هي المشرقة او المؤلمة في حياة الشعوب.

ان الالم والحزن والمآسي التي نعيشها يمكن أن نغيرها املا وفرحا وابتهاجا إذا قمنا بواجبنا تجاه ما تحمل من قيم ومبادئ وطن تسامح.

حياة الشعوب والامم على مر التاريخ لا يمكنها أن تختفي او تسقط بمرور الزمن، وهذا ما رواه لي صاحبي ورفيقيه لقاء عاشوا الشهود لمحرقة ظالمة في عالم موحش يكيل الموازين بمكاييل مختلفة ويقدم المصالح على المبادئ.

بدأت تتكشف عورات هذا العالم بخروج الصور الأولى لمعتقلين بدأ عليهم النحول والشحوب والأمراض والاسقام التي نالت منهم وقد توفي بعضهم ودفنت معهم قصص اخرى لهذا العدو المجرم، فشكلت هذه الصور صدمة للرأي العالم العالمي!؟... ولكن النظام المتغطرس يعرف حقائق الجريمة وكل اركانها فهي منظمة بأيادي خبيثة تشربت روح الحقد والعنصرية.

آه... لقد فجعتني الجرائم ونسيت ان أوثق ظلم ووقاحة وشماتة هذا المعتدي لقد وضع النصيب التذكارية لجنوده في مراكز الاعتقال!... فالطعنات تتوالى في الظهر ممن يعتبرون أنفسهم حلفاء او ممن يدعي ظلما وزورا، إنه يحافظ على كرامة وحقوق الإنسان.

لقد سقطت كل المواثيق في بحر الوهم وهي مجرد حبر على ورق.

استاء الضمير العالمي لهذه الفضائح التي رأها وتناولتها وسائل كثيرة وجرائم يندى لها الانسان لذكرها، تشكلت هيئات تقصي وبحث عن الحقيقة؟ ... أراد العدوان ان يخفي الحقيقة فزور الأحداث والوقائع وقدمت شهادات لأشخاص ادعوا الحياد.

اثناء التحقيق حفروا المقابر الجماعية اكتشفوا الجريمة بالكامل وذهلوا لما شاهدوه من ضحايا بملابسهم، نساء، أطفال، رجال. وحتى يكتمل التحقيق أكثر ويتم الاتهام المباشر لابد من شهود وكان صاحبي أحدهم احضروه وهو مقعد في عربة وفقد بصره، أمره رئيس الجلسة بالكلام والادلاء بشهادته قال: "اعتبر نفسي ضحية" ثم سرد قصص جعلت الحضور بين مستغرب وفاتح فاه ومطأطئ رأسه، لقد فضح هؤلاء العتاب وما زاد الأمر وضوحا هو ذكرهم بالاسم والتاريخ رغم انه أصبح شبه هرم أصابه بعض الخرف.

تقدم شهود آخرين وأدلوا بما يملكون من ادلة وتوثق هذا العدوان بالصورة او القصص التي يرونها ويقول معي هذا وذاك وهم حضور الجلسة والشاهدين.

رغم كل ما وقع في الجلسة من ادلة ووثائق للاتهام إلا أن العدو بقي مصرا على عدم الاعتراف بالجرم وما قام به من إبادة جماعية.

استمرت الجلسات وتحصلت المحكمة على كم هائل من الوثائق الإدانة الصريحة والتهمة هي الابادة الجماعية ومحاولة طمس معالم وهوية شعب عاشا ردحا من الزمن تعايشوا مع بعضهم لكن، .... تركته ينتكس مجددا لظلم عافه زمن.

أثناء المحاكمات لهذه الجريمة العميقة أحد قادة هذه المذابح تجرع السم أثناء الحكم عليه ب 20 سنة.

في نهاية أحد الجلسات كنت رفيقا لصاحبي قال لي: اتمنى أن أعيش لحظة يحاكم فيها هؤلاء الظلمة على ما اقترفوه في حقنا.

اما رفيق الثالث ادلى بشهادته رغم أن هو أصبح قعيدا على فراش وذاكرته قوية نوعا ما كل ما عنده من إفادات سواء بالوثائق او الصور وما رواه من قصص شاهدها أو رويت له ممن

عاشها كلها أدرجت في ملف القضية التي أصبحت قضية رأي عام عالمي، وتركته يحرك جزء من ضميره رغم ما كان عليها من تعتيم الجريمة وحقائقها.

ما أن استكملت المحكمة جلساتها حتى فارق الرفيق الثالث الحياة أما صاحبي أصبح هرما وذاكرته ضعفت جدا بقي من ذاكرته زيارة ذلك المكان والوقف على اسواره وهو يحمل باقة الورد.

ضم صاحبي مذكرته في آخرها رسالة سأنقلها حرفيا.

الوطن يجمعنا على الأرض وتحتها هو جزء من كياننا يجب أن نحافظ عليه كما ضحينا نحن لأجلكم فلتعيشوا في سلام وود في وطن المحبة والأرض الطاهرة.

لقد عشت فيك حياتي بألآمها وامالها وزرعت فينا حبها الحقيقي في كنف المبادئ والقيم لذا ازرعها في ابنائي واحفادي ليحافظوا على الأمانة وصونها من بعدي.

"الجد مراد بينو فتش"

هي أحداث وقصص حقيقية في مجملها صغتها بتصرف ودونتها في كتب عديدة أظهرت هذه المآسي والأحزان في تلك الفترة من الحرب البوسنة والهرسك إلى نهاية العدوان وظهور تلك المشاهد المروعة التي أذهلت كثيرا من العقلاء المنصفين في هذا العالم المليء بالأحداث والحروب والنزاعات والصراعات بين مختلف الشعوب والأمم وما ينتجه أصحاب المصالح من صراعات الذين يعتبرون أنفسهم شرطة العالم ويكيلون الأمم والشعوب بمكاييل غير متوازنة فتلك حرب عدوانية مضت وخلفت جرحا لا يندمل في سجل التاريخ أما ما يعيشه اليوم فهو ظلم ..... يعيش في وطنه موطن درجة ثانية وشعوب أخرى ما زالت تقاوم بكل الوسائل لنيل حريتها وسيادتها على وطنها.

"مصطفى سعد ضو (ابن البادية)"

"المرأة في عالمنا سواء زهرة برية تبحث عن الماء على ضفاف الهضاب التي تعيش فيها وعالمنا اليوم قاتل واول من يقتل هي المرأة؟"

"كريستينا (صحفية برازيلية)."

"انا لا اتذكر لحوم البشر في .....، لكني اتذكر يوما كئيبا جدا في شتاء 1993عندما مر كلب حاملا ليد بشرية، كان ذلك مشهدا بشعا للغاية "

"جانين دي جيوفاني صحفية ومراسلة عسكرية أمريكية"